

للأدب والتاريخ

مصطفى صادق الرافعي

١٨٨٠ - ١٩٣٧

للأستاذ محمد سعيد العريان

- ٤١ -

رسائل القراء إليه :

الحامي الشاعر الأستاذ إبراهيم ... شاب له خلق ودين ، وفيه اعتزاز بالمريسة والاسلام ؛ فهو من ذلك يحب الرافعي وينتصر له ، ويتبع بشوق وشغف كل ما ينشر من كتب ومقالات . ولكنه مع ذلك يحب العقاد وينتصر له ، ويراها صاحب مذهب في الشعر ورأى في الأدب ، جديراً بأن يتأثر خطاه ويسير على نهجه . وليس عجيباً - فيما أظن - أن يجتمع الرأي لأديب من الأدباء على محبة الرافعي والعقاد في وقت مما ، كما أنه ليس عجيباً أن يتصادى الرافعي والعقاد أو يتصافيا مادام لكل منهما في الأدب طريق ومذهب ؛ وإن يمنع ما بينهما من المداوة ، أو من الصفاء ، أن يكون لكل منهما قراؤه المجهلون به ، أو يكون لهما قراء مشتركون يمجبون بما ينشئ كل منهما في فنون الأدب ؛ وإنما المجهوب أن يبلغ إعجاب الفارسي بالكاتب الذي يؤثره إلى درجة التعصب ؛ فلا يعتبر سواه ، ولا يعترف لغيره أن يكون له مكان بين أهل الأدب ...

على أن شأن صاحبنا المحامي الشاعر الأستاذ إبراهيم مع الرافعي والعقاد يبعث على أشد الإعجاب وأبلغ الدهشة ... إنه يحب الرافعي ويؤثره ، ويمجبه به إعجاباً يبلغ درجة التعصب ؛ وأنه يحب العقاد كذلك ويمجبه به ويتعصب له ... لكل منهما مكانه من نفسه ، مكان لا يتسع إلا له ، ولا يزاوجه فيه خصمه ؛ ولكنه يمجبهما معاً ، ويمجبه بهما معاً ، ويتعصب لهما معاً . رأيان يتواءمان ، وشخصيتان تتناحران ، وإسراف في التعصب لكل منهما على صاحبه ؛ فأين يجد نفسه بين صاحبتيه اللذين يؤثر كل منهما بالآخر ، الإعجاب والاستاذية ؟

سورة طريفة وقعت عليها فبا وقعت بين رسائل الرافعي ؛ هذه رسالة من الأستاذ إبراهيم إلى الرافعي يقول فيها (١) : « سيدي ، إنني أحبك ، وأعجب بك ، وأتمصب لك ؛ ولكن موقفك من العقاد ياسيدي ... ليت شعري لماذا تتخاصمان ؟ ... لقد كنت على حق ... ولكن العقاد على حق ... هل تأذن لي أن أكون - رزاً - اللام بينكما ؟ »

ثم لا تمضي أيام حتى يعود فيكتب إلى الرافعي رسالته الثانية : « مدرة ... إنك لتتجني على العقاد مجنيا ظالماً ، فالك وجه من الحق في عدائه والحلمة عليه . لقد عقلت العربية فلم تنجب غير العقاد ... وإنك أنت ... إنك كبير في نفسي ، كبير جداً ، وإني لأقلب تاريخ العربية بين يدي فلا أجد غير الرافعي ... أنت ... والعقاد ... أين ترى يكون اللقاء ؟ »

وعلى هذا المثال قرأت لصاحبنا المحامي الشاعر بضع رسائل بين ما خلف الرافعي من أوراق ، تملأ النفس عجباً ودهشة . وآخر ما وصل إلى الرافعي من رسائله ، رسالتان ، كتب إحداها في المساء ، وكتب الثانية في صباح اليوم التالي ؛ ولولا خط الكاتب ، ونوع الورق ، وخاتم البريد ، لما حسبتهما إلا رسالتين من شخصين لو أهما التقيا في الطريق لتضاربا بالأف كف ... !

على أن الرافعي مع ذلك كان يرد على رسائله ؛ وودت لو ينشر صاحبنا بعض رسائل الرافعي إليه ؛

والآنسة الأديبة ف . ز . معلقة في إحدى مدارس الحكومة كان أبوها زميلاً للرافعي في محكمة طنطا ، وكان بينهما صلة من الود ، فلما مات لم تنس ابنته صديق أبيها ، فكانت تستعينه في بعض شؤونها ، ومن ثمة نشأت بينهما مودة ، فكانت تراسله ويراسلها ، ومن رسائلها إليه كان له علم جديد في شؤون وشئون . صحبته إلى زيارتها صرة في ليلة من ليالي الشتاء ، مع الصديقين كامل حبيب وسميد الرافعي ؛ فلقبناهما مع بعض صديقاتها ، وكانت جلسة طالت ساعات ، أعتقد أن الرافعي قد أفاد منها بعض معانيه في قصة « القلب المسكين » ؛

(١) ليست الرسائل تحت يدي في اللحظة التي أكتب فيها هذا الفصل ، ولكن ما أحكيه بعد هو ترجمتها في نفسي كما قرأتها منذ قريب .

... وقد أنشأت هذه الرسائل بين بعض قرائه وبينه صلات عجيبة من الود؛ فهو منهم أب وصديق ومعلم ومشير؛ وجلس على «كرسي الاعتراف» فترة غير قصيرة من حياته، فتفتحت فيها عيناه على كثير من حقائق الحياة لا يبالغ أن يصل إليها من رحل وطوف. وكان له في كل دار أذن، وعلى كل باب رقيب عتيد، ولست بمستطيع أن أفسر سر هذه الثقة العجيبة التي ظفر بها الراجي من قرائه؛ ولكني أستطيع أن أجزم بأنه كان أهلاً لهذه الثقة؛ فما أعرف أنه باح بسر أحد فسماه أو عرف به، وما أطلع على رسائل قرائه أحداً غيري إلا قليلاً من الرسائل كان لا يرى بأساً من إطلاع نفر قليل من أصحابه عليها لفرض مما يستجره إليه بعض الحديث في موضوعها؛ بل إن كثيراً من هذه الرسائل قد أخفاه عني - وما كان بيني وبينه حجاب أو سر - فما عرفت خبرها إلا بعد موته. ويستطيع أصحاب هذه الرسائل أن يطمئنون إلي؛ فستظل أسرارهم - في يدي - مصنونة عن عيون الفضوليين، فلن أتناول الحديث عنها إلا من حيث يدعوني الواجب لجلاء بعض الحقائق في هذا التاريخ.

وكان له مراسلون دأبوا . . . يجدون للكتابة إليه جزءاً من نظام حياتهم، فلا تنقطع رسائلهم عنه، ولا يخفى عليه شيء من تطورات حياتهم، وقد أكسبهم طول العهد بالكتابة إليه شيئاً من الأناج والاطمئنان إليه كما يطمئنون إلى صديق عرفوه وجربوه وطابشوه طائفة من حياتهم؛ وإن القاريء ليلح في هذا النوع من الرسائل الدورية التي يبعث بها إليه هؤلاء الأصدقاء الثراء، مقدار ما أثر الراجي في حياتهم منذ بدأت صلته بهم، فتطورت بهم الحياة تطورات عجيبة؛ وأدب الراجي إليهم دينه وأثر فيهم بما كان لهم من الأثر في أدبه وفي حياته الاجتماعية. وإني لأضرب مثلاً لواحدة من هؤلاء الأصدقاء:

نناة من أسرة كريمة في دمشق، نشأت في بيت عز وغنى وجاه، وهي كبرى ثلاث نشأة نشأة يفاخرن بها الأتراك؛ ثم تقلبت بين الحياة فاذا هن بعد النبي والجاه ناس من الناس . . . واضطرت الكبرى أن تخرج إلى الميدان عاملة ناصبة لتعول

أسرتها، وكان لها من ثقافتها وتربيتها معينٌ ساعدها دون أختها في ميدان الجهاد؛ وعلى أنها كانت أجل الثلاث وأولاهن بالاستقرار في بيت الزوج الكريم فقد سبقها أختها إلى الرقاء والبنين والبنات وظلّت هي . . . وما كان ذلك لميب فيها ولكنه سرٌّ لم يلبث أن انكشف لمينها: لقد كانت هي وحدها ومن دون أختها التي تستطيع أن تعول أسرتها لأنها عاملة . . . وتأملت حين عرفت السر ولكنها كتبت آلامها وظلت «صابرة»، ومضت الأيام متتابعة والأمانى تخلف موعدها؛ وتحركت فيها غريزة الأمومة ولكنها قمتها بإرادة وعنق ومضت تصارع الطيبة وتتحدى القدر بمزيمة لاتلين؛ ولكنها لم تلبث أن أحسّت بوادر الهزيمة بمد طول الكفاح فشرعت قلها اسدب وكتبت رسالتها الأولى إلى الراجي بأضواء «الصابرة»

وقرأ الراجي رسالتها ثم قص على خيرها وتندت عيناه بالدموع: يا لها من فتاة باسلة!

وأجابها الراجي على رسالتها بتذييل صغير في حاشية إحدى مقالاته في الرسالة . . . وعادت تكتب إليه وعاد يجيبها وتولت رسائلها ورسائله وقد كتبت اسمها وعنوانها عن كل أحد - وكانت كتبت إليه في ورقة منفصلة في إحدى رسائلها لميزته وحده إن عناه أن يحتفظ برسائلها - وكان لها الراجي كما أرادت: أباً وصديقاً ومرشداً ومشيراً؛ ولم يلبث عليها في بعض رسائله أن يتوسط في الحديث إليها عن قصة «القلب السكين» لعلها يجد فيها يكتب إليها من شئونه عزاء وتسلية. وتمزّت السكين عن شيء بشيء، وناب إليها الاطمئنان والشعور بالرضا. وبدا في رسائلها الرن جديد لم يكن في رسالتها الأولى. وأخذت تكتب إليه عن كل شيء تحس به أو تراه حولها، وتستشيرها فيما جل وماهان من شئونها، في سفرها، وفي إقامتها، وفي رياضتها، وفي عملها، وفي يقظتها، وفي أحلامها . . . في كل شيء كانت تكتب إليه، سائلة ومجيبة، ومخبرة ومستشيرة، حتى في صلواتها مع صديقاتها وأصدقائها، وفي الخطاب الذين يطرقون بابها بطلبون يدها . . . ولم يكن يرضن عليها بشيء من الرأي أو المشورة . . .

وكان للصابرة جزاء ما صبرت، وتحققت أمانتها على أكل ما تتحقق أمانى إنسان، وجاءها العروس التي لم تكن أحلامها

« الصديق الكريم ... »

« ... ولماذا أخشى هذه للقبالة يا أستاذ؟ وهل أنت خفيف لهذه الدرجة ... على كل حال إذا وجدت ما يعينني فسأختني وراء (زوجي) ولا بد أنه يحسن الدفاع عني . لا ، لا ، سألبس درعاً مهيئة تقيني (نرت) هذه المغناطيسية القوية ، ولكنني أخاف يا أستاذي أن يكون الحديد أكثر انجذاباً ، وأكون حينئذ أسأت من حيث أردت الاحسان ... صحيح أنني مجيبة ، ولا أزال ، وسأبقى دائماً ، ولكن ألا ترى أن الإعجاب و ... قد يتفقدان أحياناً وقد يختلفان ؟ ثم أليس ... معان كثيرة وأماليب عديدة ... ؟ »

« تريد رأيي في صاحب القلب المسكين ؟ أنت تعرفه جيداً فلماذا تريد إحراجي ... ؟ »

« الجلال ليس مدار بحثنا ، وأيس له أهمية قل أو أكثر ، ومع ذلك فصاحب القلب المسكين يتمتع بقسط وافر منه . إسمع ، سأبدي رأيي . لا لا ، ما بدئي أقول ، أستحي ... »
وكانت تعرف من أمره مع (فلانة) ما قص عليها في رسائله وفق رسائلها حديث كثير عنها ، وقد زارتها مرة عن أمره لتبثه بخبرها ...

وأعتقد أن في رسائله إليها ما يكشف بعض النموذج في قصة الرافعي و (فلانة) ويكون فيه برهان إلى براهين لدينا ؛ فليبدأ أن تفضل السيدة الكريمة بالنزول عن حقها في هذه الرسائل فهدئها إلينا لثمة لنا بهذه الحلقة المفقودة سلسلة التاريخ ؛ إنها أديسة وعالة ، وإنها بذلك لتعرف حق التاريخ وحق الأدب عليها في هذه الرسائل ، ولها علينا ما تشترط فنؤفقه ، فلعل صوتي أن يبلغ إليها في مأمنا . ضمن الله لها ساداتها وحقق لها ما بقي !

هذه قصة فتاة يجود انفاريء بين أولها وآخرها أشتاناً من تاريخ الرافعي ؛ وفيها مثال يبين معنى ما سميت (الفتاة الاجتماعية) في حياة الرافعي بما كان بينه وبين قرائه من صلة الرسائل . على أن هذه القصة بخصوصها كان لها من عناية الرافعي حظ أي حظ . وقد كان علي أن يكتب - بما اجتمع له من فصول هذه القصة -

تتناول إليه في مناسبا ، و برق في إسبعها خاتم الخطبة ، فانبهرت منه عيون الا أريد أن أذكر من صفات خطيبها حتى لا أعزف بها وبه ، وليس من حق أن أكشف ما تريد هي أن يظل مستوراً ... لو قلت إن خطيبها كان وزيراً لما بدت !

واستمرت تكتب للرافعي والرافعي يجيبها ... حتى رسائل خطيبها إليها كانت تبث بها إلى الرافعي يشبر عليها كيف تجيب ، وحتى برنامجها قبل الزفاف وبعده كان بمشورة الرافعي ورأيه ... وجاءته آخر رسالة منها مؤرخة في ٣/٤/١٩٣٧ (نرى الرافعي في ١٠/٥/١٩٣٧) تقول فيها :

« الصديق الكريم ... »

« ما أحلى دعوتك يا صديقي وما كان أشدها تأثيراً على نفسي لقد شمعت وأنا أفرؤها بسرور عميق ، وتركزت في ذهني أن هذه الدعوة مقبولة ... ما أسعدني إذا صرت في المستقبل أما « أعتقد أنك تعرف تماماً أن حنيني للزواج فيما مضى وتعمدي وثورتي على هذه الحياة ، لم تكن إلا لأنني رأيت وسيلة للحصول على الطفل ؛ فقد تنهت في غريزة الأمومة بشكل هائل ؛ تصور يا أستاذي ، صرت أكره الأطفال لأنني ليس لي بينهم ولد ؛ وكنت إذ أرى أمّاً تمانق طفلها وتضمه إلى صدرها أحس بالم سرير يحز بقلبي ويكاد يقطعني . وكثيراً ما كنت أتشغل وأشيح بوجهي حتى لا تقع عيني على هذا المنظر . لست حمودة والله ، ولكن شدة إحساسى كانت تجعلني بهذا الوضع ... أما الآن فأنا مسرورة لأقصى حدود السرور ، وأتمنى لو أنتر الخير والسعادة على الجميع ... »

« ... والله يعلم أن ليس لي أي غاية مادية من وراء هذا الزواج ، وليس قصد ، منه إلا الحماية والمتر ، لأنني مللت ومرضت تلي من فضول الناس ... »

وكانت على نية زيارة مصر لترور الرافعي مع زوجها ، اعترافاً بحقه عليها ، ولكن القدر لم يجعله حتى يحين الموعد ، و كان أجله قبل أن ينظر بعينه الفتاة التي تبناها على بمد العار وشغلته أحزانتها بضع سنين ، فلما ابتسم لها القدر وتحققت أحلامها ناداه أجله وما شاركها ابتسامته للفرح وتهاني المسرة ... !

تقول له في رسالتها المؤرخة ١٥/١/١٩٣٧ :